احمد زكي باشا

في ذمة الله أبي وشيخي

بقلم بشر فارس

— العالم —

قدمت من باريس الى مصر — في فصل الصيف سنة ١٩٣٠ — أطلب طائفة من المستندات إتماماً لرسالتي « العرض عند عرب الجاهلية » . فسرعان ما كتبت الى احمد زكي استضيء بمشكاته . ولما مثلت بين يديه قرأت عليه خطة رسالتي فناقشني في بعض نواحيها . والغريب انهُ ناظرني في مسائل فلسفية محضة لا ترجع الى العرب في شيء

خرجت من عند احمد زكي منشرح الصدر ، ذلك اني ادركت أني ظفرت بأستاذ ثقة . ومما زاد في انشراح صدري ان الرجل — رحمه الله — مال إليَّ وأنس بي وحملني على ان أسير في عملي اذ جعلني اطمئن اليهِ بل أثق بنفسي

منذ ذلك اليوم حتى عودتي الى باريس — أي زهاء شهر — ظللت اختلف الى احمد زكي اقرأ في داره كتباً مطبوعة ومنسوخات كان يجلبها إليَّ من خزائنه او من دار الكتب المصرية . وكان يعلمني كيف اطالع هذه المنسوخات واتصفح تلك الكتب . ثم اني لما قفلت الى مصر في السنة الماضية ما فتئت اعتمد على احمد زكي وارجع اليهِ فيما اقرأ واكتب

كان احمد زكي راسخ القدم في الفنون العربية : عالماً بفقه اللغة وقواعدها ، بالتفسير ومذاهبه ، بالفقه ودقائقه ، بالتاريخ ونوادره ، بالجغرافيا وشواردها ، بتراجم الرجال المبرزين . وكان — فوق هذا — متضلعاً من اللغة الفرنسية ، مطلعاً على أدبها القديم والجديد ، وكان يقرأ الاسبانية والانكليزية ، وكان يأسف على جهله الألمانية ، وطالما قال لي : تعلم الالمانية ان اردت ان تتمكن من فن الاستشراق

ولم يكن علم احمد زكي مقصوراً على شؤون العرب واللغات ، بل كان ينبسط على الفلسفة والتاريخ العام والجغرافيا العامة والقانون والاقتصاد السياسي

هذا ، وقد يظن الناس ان سمة الاطلاع كانت خاصية احمد زكي . والذي عندي ان خاصيته كانت بين البصيرة الخطّافة والذاكرة المكينة . ثم انهُ كان يفضل سائر العلماء باستعمال الجزازات fiches ، وهي طريقة علمية اخذها عن الفرنجة : فكنتَ ترى في داره خزانات يملأها جزازات مرتبة على حروف المعجم ، كل طائفة منها على حسب الفن او الباب الذي ترجع اليهِ . وهذا ما يبين لنا كيف كان يأتي احمد زكي بالحجج القاطعة والاستشهادات الصحيحة في اسرع من ارتداد الطرف . وكيفما كانت الحال فان احمد زكي كان قوي الحجة ، طلق البديهة . وقد رأيته — غير مرة — يكتب مقالاً كاملاً في جلسة واحدة . وكان يؤثر الكتابة عند الفجر

واظنّ المناظرة الفن الذي مهر فيهِ احمد زكي . وانه لا يخفى عليّ ان خصومه في العلم كانوا يخافونه لتبحّره وعارضته ، وربما خافوه للذعه . والحق ان قلم احمد زكي كان ينحرف الحين بعد الحين عن الهدوء فيهيج ، الاّ ان هيجانه لم يشذّ قط عن ادب المناظرة ، وجلّ ما يقال فيهِ — اذن — انهُ كان متهزلاً ساخراً . واني أشهد ان احمد زكي لم يعمد الى التهزل والسخرية الاّ ليدفع سقطة خصومه ويشلّ مكابرتهم

***

ومن فضائل احمد زكي العلمية انهُ كان حرّ الفكر ، كثير التحري والتثبت ، منقاداً للحق . وكل هذه صفات العالِم الحق

أما حرية فكره فانهُ لم يقل ولم يكتب الاّ ما رسخ في ذهنه . ثم انهُ ما عَلّق احداً من الناس . والمعلوم انهُ كان كثير الخصوم والاعداد لصراحته وصدقهِ . (ووالله لو صانع لَحَلّ في مقدمة المجمع العربي المصري !) واكبر دليل على حرية فكره انهُ فسّر طائفة من الآيات الكريمة مستنداً الى عقله فأقبل عليه العلماء والفقهاء يحاجّونه ولم يظفروا منهُ بشيء

واما تحريه وتثبته فقد عرف المُقرّبون اليهِ كيف كان يطيل النظر في الكتب المُسنَد ويوازن بينها ابتغاء الوصول الى الحقيقة ، وكثيراً ما كان يثبت المظانّ فلا يرسل الكلام ارسالاً كمثل غيره من علمائنا

واما انقياده للحق فقد اجتمع ذات مساء عندي بالاستاذ زكي المهندس المدرس بدار العلوم . فدارت بينهما مناظرة حول استعمال « لا » مع « كاد » . فقال احمد زكي : تقول العرب « يكاد لا يفعل » وقال الاستاذ المهندس : بل تقول « لا يكاد يفعل » . فثبت احمد زكي عند رأيه ، وبقي الاستاذ المهندس على قوله ، حتى الصرة جميعاً . ولما كانت الساعة الخامسة صباحاً ايقظني جرس (التلفون) ، واذا احمد زكي يصيح : ان الاستاذ على صواب ، ولكن أجهل عنوانه ، فأخبره لساعتك اني قضيت ليلتي في التنقيب والتصفح حتى أصبت الدليل على قولهِ — في القرآن — « أم انا خيرٌ من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين — سورة الزخرف »

ومما يؤسف عليه ان احمد زكي باشا بذل حياته العلمية في كتابة المقالات . فاذا نظرنا الى تآليفه لم نصب الاّ كتباً ضئيلة او محاضرات او رحلات او ترجمات وكم قلت له يا باشا توّج حياتك بمؤلف ضخم لا يقدر على اخراجه الاّ انت . فما زلت به وما زال بي بخلصاؤه ومريدوه حتى دعاني يوماً فقال لي : يا بنيّ اني رأيت ان اؤلف معجماً مختصراً سهل المتناول على شاكلة معجم Larousse الفرنسي مع لحق ادرج فيه اسماء الاعيان والبلدان . فصفقت لتلك النية . فقال لي الباشا : اني ارغب اليك ان تعاونني على تأليف ذلك المعجم ، وليكن عملك موقوفاً على تهذيب المعاجم العربية بحيث تطرح الزوائد والشواهد وتقصر الشرح على الالفاظ الحية التي بنا حاجة اليها سواء كانت علمية او عملية ، ثم اراني بعض جزازات كان قد هيأها على سبيل المثال . فاتفقنا على ان نشرع في تأليف المعجم بعد اشهر معدودات ، وقد اوصاني احمد زكي ان اجعل الامر بيني وبينه . وهأنذا اذيعه اليوم

***

ومن مباحث احمد زكي الاخيرة انهُ كان يشتغل باثبات خارطة الجزيرة ولا سيما اليمن . وقد اطلعني على رسم اولي لهذه الخارطة ، واخبرني انهُ بعث الى الحكومة اليمنية يسألها عن اشياء وانهُ راحل الى تلك البلاد ليحقق مولد النبي

ومن اعماله الاخيرة انهُ صحح طائفة من تجارب كتاب « موافقات الحديث » ، ذلك الكتاب الذي يطبعه الآن البروفسور (فنسنك) في (هولندا) . وكان احمد زكي يرسل تلك التجارب بالبريد الجوي على الغالب

ومن آثاره في خزاناتنا تلك الكتب النفيسة التي صححها وطبعها وعلّق عليها ، واليك مثلاً « كتاب التاج » . ولربما ظفر بكتاب فريد يحلم العلماء به فلم يدخر وسعاً في اقتنائه وطبعه الطبع الذي لا يترك غاية وراءه (دونك « كتاب الاصنام » لابن الكلبي) او تصويره تصويراً محكماً (اليك « كتاب الامتاع والمؤانسة »)

ومن آثاره على السنتنا واقلامنا الفاظ ولدها واسماء رجال وبلدان احياها احياء . اما هذه الاسماء فقد ظلّ يجاهد في سبيلها في الصحف ولا سيما « الاهرام » . واما تلك الالفاظ فقد يرى لها قلبه . ومنها لفظة « السيارة » . واني اقف عندها لان « الباشا » حدثني عما عانى من اجلها قال : كتبت فيما مضى من الزمان اعرض لفظة « السيارة » بدلاً من لفظة « اوتوموبيل » . فسفّهني لفيف من الادباء ، على رأسهم المويلحي وظهروا عليّ . الاّ اني كنت في ذلك العهد صاحب السر في مجلس الوزراء ، فوقعت لأحمة « النقل » ذات يوم بين يدي ، فجعلت لفظة « السيارة » مكان لفظة « اتوموبيل » حيث اصيبها ، ثم دخلت على رئيس الوزراء ، فوقّعها على وجهها ، وهكذا شاعت لفظة « السيارة »

وعلى الجملة ، ان احمد زكي كان العالم الذي يقف حياته على العلم ويتلف ماله في سبيله : ترجم وألف وكتب وخرّج التلاميذ وعاون العلماء وجمع الكتب ثم بذلها للخلق . وما أظن احداً من الشرقيين لهذا العهد ظفر بالصيت الذي ظفر به احمد زكي . ولعلّ بعض خصومه يذهبون الى ان صيته انما رفع على حساب العرب وحمايته لهم ودفاعه عنهم ، فاعلموا ان الرجل كان ابعد صيتاً عند الافرنج على تحديه لهم وتشيعه للعرب وتعصبه للشرق والدليل على ذلك ان مكانته عند المستشرقين رفيعة جدًّا ، ولقد اتفق لي وأنا اطلب العلم في « السوربون » ان اسمع غير واحد من اولئك القوم يثني على احمد زكي ويعترف له بالعلم الغزير ، ولولا ان يكون الامر هكذا ما قصده البروفسور (فنسنك) ولما قال فيه استاذي البروفسور (دوماميين) ما قال في المقدمة التي عملها لكتابي المذكور في مستهل هذا المقال

— الرجل —

لازمت احمد زكي سنة ونصف سنة . فكان رحمه الله اباً لي وشيخاً وصديقاً في آن

ان خلق احمد زكي [1] خلق عربي كريم حتى الائتلاف أبيّ (لا يطأطىء ولا يلتمس شيئاً) — سمح النفس (لا ينصب عداوة لمن يخالفهُ في عقيدة) — وفيّ (لم يختفر ذمة ولم يخن صديقاً) — عصبي المزاج (سريع الغضب ، سريع الرضى) — مقدام (وانما كانت شجاعته في الرأي) — ميال الى النضال (وانما كان يبارز بالقلم واللسان) — ثابت الرأي (لا ينقاد لامر عن هوى) — لطيف المحاضرة ، ظريف البادرة ، حلو الحديث

بيد ان هزّة الشباب أبرز ما في خلق احمد زكي

كان — رحمه الله — وثاباً متحركاً ، لا يقعد عن الكتابة والقراءة ، ولا عن الجولان ، فتارةً تراه في داره ممسكاً بكتاب او قابضاً على قلم ، واخرى في سيارته ، واخرى عند صديق لهُ ، واخرى في دار علم او محفل قومي

الاّ انهُ لم يتخلف عن داره بعد العشاء . وكان يفد اليه خلصاؤه في تلك الساعة ، فيتمشون معه ويلاعبونهُ « الدومينو » او يساقطونهُ الزان الحديث . وكم مرة قلت لصديقي الفاضل الشيخ محمد النعيمي الشنقيطي : هذا الظلام قد خيّم على مصر ، اين نمضي ؟ فينظر كلانا الى الآخر ، واذا نحن نسير الى « شيخ العروبة » اندفاعاً وهل تنبسط النفس الاّ بين يدي صديق يصافيك الود وتخالصه الاجلال !

(١) اني في هذا المقال ما ازال اقول احمد زكي من دون ان اضيف الى هذين الاسمين لقب «باشا» أو «شيخ العروبة» لان الرجل — رحمه الله — كان يقول لي اذا سألته اني ينحر بنفسه او يتوعد خصماً : انظر الى احمد زكي — او : سترى ما يصنع احمد زكي